الكورونا .. حقائق وأكاذيب

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 21 فبراير 2021

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

كثيرًا ما أتذكر هذه الأيام وخاصة عندما أقرأ الإحصائيات التي تشير إلى تضاعف أعداد المصابين بفيروس الكورونا نتيجة تضاعف عدد المستهترين والذين يعتبرون أن الحجر الصحي سجنًا وما إلى ذلك من رفض لتطبيق الاحترازات الصحية والأمنية الحديث النبوي الشريف المعروف بحديث السفينة الذي رواه الإمام البخاري والذي يقول فيه صلى اللّه عليه وسلم «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا».

في هذا الحديث يوضح صلى اللّه عليه وسلم ان أفراد المجتمع يمكن تقسيمهم إلى فئتين من الناس عند القياس بمقياس حدود اللّه سبحانه أو بمقاييس السمع والطاعة، فالفئة الأولى هي تلك التي تراعي محرمات اللّه وحدوده لذلك عادة ما تسمع وتطيع وتكون حذرة وتضع لنفسها العديد من المحاذير حتى لا تقع في المحرمات، والفئة الثانية هي تلك التي

تقوم بكل التجاوزات والانتهاكات من غير أن تهتم بأحد، وهؤلاء يمكن أن يعرفوا أنهم الذين يرفعون شعار (أنا ومن ورائي الدمار)، فهم النرجسيون الذين لا يهمهم إلا أنفسهم ومتعهم بغض النظر عن أي أمر آخر.

تلك السفينة التي تحدث عنها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مكونة من طابقين أو مستويين الطابق الفوقي والطابق السفلي، فوجدت الفئة الثانية نفسها في المستوى السفلي، لذلك فإنهم عادة وبعد عمل مضني وشاق في السفينة وفي حالة رغبتهم في شرب جرعات من الماء فإنهم يصعدون للطابق العلوي لشرب الماء، وكان هذا ديدنهم وحالهم طوال اليوم والأيام، لذلك شعروا بالإحراج والخجل، وربما بالكسل، بسبب صعودهم ونزولهم من الطابق السفلي إلى المستوى العلوي عدة مرات في اليوم، لذلك اجتمعوا وقرروا أن يفتحوا ثقبًا في الجزء السفلي من السفينة حتى يدخل الماء ليشربوا بين الفينة والأخرى من غير أن يصعدوا لسطح السفينة وإزعاج رفقائهم الموجودين في المستوى الفوقي، على اعتبار أن المستوى السفلي هو الجزء الخاص بهم فقط، وليس من حق زملائهم الموجودين في المستوى العلوي مناقشتهم في ذلك أو اعتراضهم على هذا الفعل، ولكنهم نسوا أو تناسوا أن تسرب الماء من البحر إلى بدن السفينة من الثقب الذي سيحدثونه يمكن أن يؤدي إلى إغراق السفينة كلها، بغض النظر عن موقع الأفراد، سواء كانوا موجودين في المستوى العلوي أو المستوى السفلي.

وهذا ما يحدث اليوم فيما يتعلق بجائحة الكورونا، فتضاعف أعداد المصابين بفيروس الكورونا نتيجة إهمال أو لا مبالاة وتغافل لكل الاحترازات الصحية أدى بصورة أو بأخرى للوضع الذي نحن فيه اليوم، فالذين يعتقدون أن الإهمال أو التغافل عن الاحترازات الصحية شأنٌ يخصهم هم فقط ولا يخص الآخرين، هم بالضبط كالذين كانوا في المستوى السفلي من السفينة، إذ اعتقدوا أن الثقب الذي سيحدثونه في بدن السفينة والجزء السفلي من السفينة شأنٌ يخصهم هم لوحدهم، ولكن إن أحدثوا ذلك الثقب فإنهم سيتسببون في غرق السفينة، وغرق البلاد عند تعاطيهم مع فيروس الكورونا كأنه شأنٌ يخصهم هم فقط، وكأنهم لا يعرفون إن هذه الحدود الجغرافية تضم بالإضافة للمستهترين واللا مبالين العديد من فئات المجتمع التي تحاول أن تنجوا بنفسها وأولادها من التعرض لهذا الوباء، وقارب النجاة بالنسبة إليهم الاحترازات الصحية أيًا ما كانت قاسية، فالجميع يعيش في سفينة واحدة والجميع سوف يتأثر مهما كان الثقب أو الاستهتار صغيرًا.

لنروي بعض الحكايات

ذات يوم زار أحد الأفراد المصابين بالفيروس صديقه في منزله، وكانت أعراض الإصابة ليست واضحة عليه، إلا أنه كان يشعر أنه مصاب أو سيصاب، إلا أنه لم يهتم وكذلك صديقه لم يهتم، فماذا يمكن أن يحدث؟

جلسا في المجلس معًا من غير أي احترازات صحية، فهكذا بكل بساطة انتقل الفيروس إلى صاحب الدار، وكلها أيام والفيروس كان يتنقل من صاحب الدار إلى زوجته وأولاده وكل من بالبيت، فالفيروس لا يعرف المجاملة ولا يعرف الحدود، عندئذ تضاعفت الأعراض وخاصة على ربة المنزل التي كانت تعاني أصلاً من بعض المشاكل الصحية بالجهاز التنفسي، وعلى الرغم من كل المحاولات فإنها أسلمت روحها ذات مساء، كل ذلك بسبب الإهمال والاستهتار.

صديق آخر نقل لي هذا الحادث، شابة مصابة بالفيروس، وهي في الحجر المنزلي، تُغافل والديها وأهلها فتخرج لزيارة صاحبتها التي لا تعلم أن صاحبتها مصابة، فتخرجان بالسيارة مدة حوالي ساعة، ثم تعودان كل واحدة منهما للمنزل بعد مشوار طويل واختلاط مع بعضهما لبعض مدة ساعة كاملة تقريبًا، فتنجو الأولى وتخرج من الحجر بعد عدة أيام، إلا أن الثانية لم تتمكن من المقاومة فلم تنجو.

وقصص كثيرة، ومعظم حكايات الإصابات التي حدثت في الآونة الأخيرة كانت نتيجة للاختلاط، وخاصة اختلاط المعارف والأقارب، فنحن – وذلك بحسب تربيتنا وأعرافنا وتقاليدنا – لا نستطيع أو بالأحرى نخجل أن نمنع أو أن نُوقف الزيارات العائلية، فعندما يأتي قريبي – أيًا كان – أو حتى جاري إلى باب منزلي فمن العيب جدًا ألا أقول له «تفضل»، بل ويجب أن ألح عليه

حتى يتفضل ويحظى بواجب الضيافة حتى لو كانت مجرد لحظات، هكذا نحن.

هذه المجاملات الاجتماعية وهذه التقاليد والأعراف التي ورثناها والتي نعتبرها رائعة، وهي فعلاً رائعة ولا يمكن تجاوزها، يمكن في هذه المرحلة من الحياة أن تؤدي بنا أو بأولادنا إلى التهلكة، فمن الأولى – ولو في هذه المرحلة فقط – أن نتجاوزها ونتغافل عنها، وهنا نحن نتحدث عن الأعراف والتقاليد، فما بالنا إن كنا نتحدث عن المستهترين واللا مبالين الذين يريدون أن يحدثوا ثقبًا في سفينة الوطن، أليس من الأجدى أن يعاقبوا بسبب هذا الاستهتار وهذا الإهمال ؟

ألا يشعر هؤلاء بمعاناة البشر ؟ بماذا يمكن أن يشعر هذا الإنسان وكيف سيكون شعوره إن وجد أن طفله الذي لم يتجاوز السنوات العشر مصابًا بالفيروس ويعاني الأمرين من جهازه التنفسي إذ يصعب عليه أن يتنفس أو أن يتغذى أو أن يتحدث ؟ كيف سيكون شعوره إن منع هو عن زيارة ابنه أو ابنته ؟ ألا تشعرون ؟

هل تعتقدون أن الأمور سهلة وأن الإصابة يمكن تجاهلها ؟

يقول أحد أبناء خالاتي في دولة من دول الخليج بعد أن تعافى من الإصابة:

لا تعتقد يا ابن خالتي ان الأمور بسيطة وأن الإصابة مجرد نزهة أو فترة نقاهة، تصور أن الساعات والدقائق التي تمر عليك وأنت مستلقى وتنظر

لسقف المركز الذي أنت فيه تبدو وكأنها أيام، أيام طويلة وأنت مزود بجهاز ضخ الأكسجين، تصور أنك وعلى الرغم من أنك مزود بجهاز ضخ الأكسجين إلا أن هذا الهواء لا يدخل الرئتين، وكأن الهواء يلفظك ويرفض الدخول إلى جسمك، وأنت مستلقى لا تعرف ما مصيرك.

يقول: أصبح عقلي كالساعة القديمة ذات التروس الصدئة، كل الحركات التي أشاهدها أمامي بطيئة، وكأنه فيلم قديم لا يتحرك إلا بالدفع البطيء، كل شيء بطيء، الحركات، الكلام، حتى الابتسامات لا قيمة لها، فأنت لا تستطيع أن تضحك لأنك خائف من أن تضحك، فمصيرك بيد خالقك، إذ يمكن أن تسلم روحك في أي لحظة.

فقد شاهدنا ونحن في هذا الحجر عدداً من المصابين يغادرون إلى الرفيق الأعلى، هكذا ببساطة، لحظات يتوقف جهازه التنفسي عن استقبال الأكسجين، فيلفظ أنفاسه، أطفال وشباب وشيوخ، فالفيروس لا يفرق بين الأعمار أو الأديان أو الألوان، فالكل سواء.

أيام وأنا في الحجر، لا أستطيع أن أرى أولادي وأهلي، وحتى والدتي التي كانت تلح بزيارتي إلا أنها مُنعت، كنتُ أخفي دموعي، إلا أني في لحظات أخرى تغلبني فما يكون مني إلا أن أبكي، على الرغم من إن حالتي لم تكن شديدة بحسب كلام الأطباء.

وكذلك كانت هناك معاناة شديدة مع تناول الوجبة الغذائية، فلا تشعر بطعم شيء، فشوربة الدجاج مثل شوربة المشروم مثل أي شيء يمكن تتناوله، وكأنك تشرب الماء، فلا طعم ولا ذوق، ليس ذلك فحسب وإنما المعاناة الكبيرة إنك لا تستطيع أن تبلع، فعملية البلع – وهي أسهل عملية – تتوقف نوعًا ما، تشعر أن كل الذي تريده أن تبلع ملعقة أو ملعقتين من الشوربة إلا أنك لا تستطيع، إنها معاناة وعملية شاقة جدًا يا رجل. في تلك اللحظات شعرت باليأس والإحباط والاكتئاب، فكنت أرثي لحالي وحال كل الموجودين معي في هذا المكان.

وتنتهي كل تلك الحكايات، ولكن حكايتنا مع الأخوة والأخوات الذين يجدون أن الاحترازات الصحية والحجر الصحي عائقًا لحرياتهم الشخصية، يمكن أن ننقل لهم هذه الرسالة الشخصية لا تكونوا كأصحاب المستوى السفلي من السفينة فالغرق سيشمل الجميع، فالفيروس لا يفرق ولا يجامل، وليس في هذه الحكاية أكاذيب.